اللون الأصفر

للأستاذ احمد أمين

لفت نظرى — وأنا أدرس الحياة الاجتماعية فى العصر العباسى — ما رأيت من كثرة ما كتب عن اللون الأصفر فى هذا العصر ، وحلوله محلاً كبيراً غطى على كل الألوان الأخرى ، وكثرة ما قيل فيه من أدب ، فرأيت أن أعرض على قراء «الرسالة» شيئاً منه وأترك لعلماء الجمال ما يدل عليه انتشار اللون الأصفر فى الشعوب من تحديد درجة الذوق فى الرقى ، وعلاقته بانتشار التهتك والخلاعة ، ودلالته على مقدار ما وصلت إليه الأمة من حضارة

* * *

رأيت العراقيين هاموا باللون الأصفر وتنزلوا بالوجوه الصفر ، وصبغوا ثيابهم بالصفرة ، وافتتنوا بالزهور الصفر ، وأكثروا من اتخاذ الطعوم الصفر ، ومدحوا الجواهر الصفر ، وهكذا

روى الجاحظ من الأمثلة المشهورة قولهم : « أهلك النساء الأصفران : الذهب والزعفران » ، وهذا يدل على غرام النساء باللون الأصفر ، وظهور هذا الغرام بحبهن للذهب والزعفران ؛ أما حبهن للذهب فللونه ولأنه خير أنواع المال . وقد ظُلم النساء برميهن وحدهن بحب الذهب ، فمن من الرجال كذلك لم يذله الذهب ويسترقه المال ويستعبده الدينار ؟ ومن منهم لم يقس اخلاقية العمل بمقياس الذهب ؟ . . . لقد كان الحريرى أصدق قولاً إذ يقول :

أكرِمْ به أصفرَ راقت صفرتهُ جوّابَ آفاقٍ ترامت سفرته
مأثورةً سمتُه وشهرته قد أودعت سر الغنى أسرّته
وقارنت نجحَ المساعى خطرته وحُببت إلى الأنام غرّته

. . . . . .

لولا التّقى لقلت جلت قدرته

وأما الزعفران (وهو نبت له أصل كالبصل وزهر أصفر الى حمرة) فقد كان له سلطان فى بغداد أى سلطان حتى لو سميتَ بغداد فى ذلك العصر مدينة الزعفران لم تُبعد ؛ وقد جعلوا له قوة سحرية فقالوا : « إنه إذا كان فى بيت لايدخله سام أبرص)

وإذا حسن فى عينهم شىء أصفر شبهوه بلون الزعفران كما قال آدم بن عبد العزيز :

شربت على تذكر عيش كسرى شرابا لونه كالزعفران

وأكثروا من تلوين الطعام به ؛ قال بديع الزمان فى إحدى مقاماته : « ومعنا على الطعام رجل تسافر يده على الخوان ، وتأخذ وجوه الزعفران »

وكان البغداديون يلونون الطعام ويكرهون أن يقدموه بلا تلوين ، ويسمون الطعوم غير الملونة « الطعوم المُعتدّة » تشبيهاً لها بالمرأة فى العدة ، لأنهم يكرهون منها أن تلبس الثياب الملونة ، فكانوا يلونون الطعام بالزعفران وبالمصفر وهو أصفر أيضاً . قال ابن حمدون :

هاتوا أطايب تورٍ فائق سمناً كالفيل قدّاً وان عدُّوه فى البقر
وسكّبجُوها ووفوها توابلها وزَعفروُها وصفوها عن النير

وصبغوا بالزعفران ملابسهم ؛ حكى الأغانى أن الرشيد دخل على أخته علية بنت المهدى فى يوم دَثَظ فوجدها قد صبغت ثياباً بزعفران وصندل وجعلتها على الحبال لتجف ، فجعلت الرياح تمر على الثياب فتحمل منها ريحاً بليلة عطرة فوجد لذلك راحة من الحر

وكتبت جارية على قباء معصفر :

وما البدر المنير إذا تجلى هدوا حين ينزل بالعراق
بأحسن من بثينة يوم قامت تهادَى فى معصفرة رقاق

وقد كثرت أسماء الثياب الصفر نسموا

التّخمَةَ : الثياب المخططة بالصفرة

والرّادعة : القميص لُمّع بالزعفران والطيب

والسبنيّة : نسبة إلى سَبَن قرية بنواحى بغداد وهى ثياب من حرير فيها أمثال الأترجّ (الأصفر)

والثياب المحرّضة : وهى المصبوغة بالاحريض وهو المصفر .

والثوب المُمصّر : قيل هو المصبوغ بمصفرة خفيفة

والثوب المورّس : المصبوغ بالوَرْس وهو نبت أصفر يصبغ به .

وأكثر ما كانت العصائب التى تتزين بها النساء عصائب مصبوغة بالزعفران وشيت بخيوط من حرير وطرزت بسلوك من ذهب

وقالوا أجمل شىء غلالة معصفرة على جارية

ويروى الوشاء فى كتابه الموشى أنه لا يحسن بالرجال لبس المصبوغ بالزعفران فى مظاهر الجـد لأن ذلك من لبس النساء والقيان ؛ وقد يلبسه الرجال فى أوقات الفصد والملاجات وأوقات الشراب ، وربما استعملوا ذلك فى وقت قصفهم وتظرفوا بها فى مجالسهم . . . والظهور بها قبيح من السوقة مستحسن من أهل النعم وأبناء الخلفاء »

وحكى التنوخى فى نشوار المحاضرة « أن الخليفة المتوكل اشتهى أن يجعل كل ماتقع عليه عينه فى يوم من أيام شربه أصفر ، فنصبت له قبة صندل مذهبة مجللة بديباج أصفر ، مفروشة بديباج أصفر ، وجعل بين يديه الدستنبو[1] والأترج الأصفر وشراب أصفر فى صوانى ذهب ، ولم يحضر من جواريه إلا الصفر ، عليهم ثياب قصب صفر ، وكانت القبة منصوبة على بركة مرصعة يجرى فيها الماء ، فأمر أن يجعل فى مجارى الماء إليها الزعفران على قدر ليصفر الماء ، ويجرى من البركة أصفر ، ففعل ذلك وطال شربه فنفد ماكان عندهم من الزعفران ، فاستعملوا العصفر ، ولم يقدروا أنه ينفد قبل سكره فنفد ، فلما لم يبق إلا قليل عرّفوه وخافوا أن يغضب إن انقطع . . . فلما أخبروه أنكر أنهم لم يشتروا أمرا عظيما ، وقال إن انقطع هـذا تنغص يومى ، فأخذوا الثياب المعصفرة بالقصب فانقعوها فى مجرى الماء ليصبغ لونه بما فيها من الصبغ ... فحسب ما لزم ذلك من الزعفران والعصفر ومن الثياب التى هلكت فكان خمسين ألف دينار »[2]

ونسبوا إلى أفلاطون أنه قال إن رائحة الزعفران تسكن الغضب ، وإذا قرن اللون الأحمر بالأصفر تحركت القوة العشقية

ولاعجابهم باللباس المعصفر أو المزعفر شبهوا به الخمر ، فقال ابن وكيع :

فاشربْ مُعَصْفَرَةَ القميصِ سُلافَة
من صنعـة البَرَدَانِ أو قُطْرَبُّلِ

وقال ابن المعتز :

لبسَتْ صفرةً فكم فتنَتْ من أعينٍ قد رأيْنَهَا وعقول
مثل شمس الغروب تسحب ذيلا صبغتـه بزعفران الأصيـل

وقال ابن الرومى فى وصف شواء :

وسميطة صفراء دينارية تناولونا زَفَّها لك جُؤْذر

وأكثروا من مدح المرأة الصفراء واستحسنوها ، ففى الأغانى أن مَتَيَّم الهاشمية ، ومحبوبة التوكلية ، ودنانير البرمكية ، كن صفراوات مولدات ، وسميت دنانير بذلك لصفرتها . وقال بعضهم فى وصف جمال الصفرة :

وعهدى بها صفراء رود كأنها نضى عرق منها على اللون مجمدا

ومدحوا الزهور الصفر والثمار الصفر

فمدحوا الآذَرْيُون وهو زهر أصفر فى وسطه خمل أسود ، قال فيه ابن المعتز :

كأن آذَرْيُونَها والشمسُ فيه كاليه
مداهنٌ من ذهب فيـــه بقايا غاليـه

كما مدحوا « الخِيرِىّ » وهو النثور الأصفر .

وكان عندهم نوع من الياسمين أصفر قال فيه الشاعر :

كأنما الياسمين حين بدا يشرق من جوانب الكثب
عساكر الروم نازلَتْ بلدا وكل صُلْبَانها من الذهب

ومدحوا التفاح الأصفر والخوخ الأصفر :

وتنزلوا بصفرة الخمر فقال أبو نواس :

صفراءُ لاتنزل الأحزانُ ساحتَها لو مسها حجرٌ مسته سراء

ويقول آدم بن عبد العزيز :

اسقنى واسق خليلى فى مدى الليل الطويل
لونها أصفر صاف وهى كالمسك الفتيل

وبالغوا فى حب الصفرة حتى كانت الفينة أحيانا تلبس الثياب المعصفرة أو المزعفرة وتطلى ماظهر من يديها ومن عنقها بالورس

روى بعضهم قال : « رأيت جارية ببغداد وقد طلت يديها بالورس وفى عنقها طبل وهى تنشد :

محاسنها سهـام للمنايا مُرَيَّشةٌ بأنواع الخطوب »

وكثيرا ماقرنوا هـذا اللون بالدلالة على الميل إلى الشهوات والفجور ، فقد رأينا نوع القيان بهذا اللون ؛ ورمزوا للخليع بقولهم إنه « يلبس المُوَرَّس » واعتقدوا أن الورس يزيد الميل إلى النساء ؛ وقرر ذلك الفيروزابادى فى القاموس وهو المولع دائما بالنص على ذلك

هـذه ظاهرة غريبة رأيتها وهى ظاهرة تستحق الدرس ، وأحق الناس بالفتوى فيها علماء الجمال الاجتماعى ؟

أحمد أمين

(١) هكذا بالأصل ولعله الدستبويه وهو بطيخ أصفر صغير مستطيل
(٢) نشوار المحاضرة ١ / ١٤٢